

المسرح الجزائري وسؤال الهوية  
لمحمد فلاق أنموذجاً « *bon quistiou* »

الأستاذة: علحية مودع  
قسم الآداب واللغة العربية  
كلية الآداب واللغات  
جامعة محمد خيضر - بسكرة

1- تقديم:

سعت العديد من الدراسات الأدبية في الجزائر إلى استنطاق البنية الاجتماعية وسبر أغوارها من منظور تاريخي/نفساني، ذلك أنّ الشيء الاجتماعي يؤثر مباشرة وبالضرورة في الشيء الأدبي، ويجعل منه تعبيراً كاملاً واضحاً وصريحاً، كما لو أنّ هنالك تباعد ممكن بين التعبير وبين الواقع الذي يعبر عنه.

والأدب الجزائري بفرعيه (العربي والفرنكوفوني) أرض خصبة ومجال رحب، أسهم إسهاماً رفيعاً في التعبير عن كفاح شعب ونضال أمة من أجل بناء مجتمع جديد، أراد الأدب الجزائري الاقتراب من مأساوية الحياة والبحث عن مصير شعب كادت أن تطمس هويته. وبالتالي فالأدب الجزائري أراد أن يقتحم ببعض أسئلته دوائر "المحظور" و"المحرم" في الوعي السائد والمسيطر على المجتمع، لا يقتحمها إلا بوصفه « خطاباً بدوره، لا يزعم لنفسه امتلاك الحقيقة. لكنه من جهة أخرى خطاب واع بذاته إلى حد كبير، يسعى جاهداً إلى تجنب الإشكاليات، الأمر الذي يشده إلى إنتاج الإيديولوجيا، إنه خطاب يحاول...مقاربة بعض جوانب "الحقيقة" بالمعنى النسبي، أي الثقافي والتاريخي.»<sup>1</sup>

أي نعم أنّ خير جنس أدبي جزائري استطاع أن يساءل الواقع والراهن بكل تمظهراته؛ هو الرواية لما تنبؤه من منزلة هامة ضمن فنون التعبير الأخرى، ولعلّ «انتشار مقروئيتها إضافة إلى ملائمتها لروح العصر، يعود كذلك إلى تفردا بصياغة مضامين موضوعاتية لم يعد بوسع الشعر صياغتها وفق النمط الجديد الذي جعلت تتخذ الرواية وتتفرد به عبر مسارات تطورها الفني.»<sup>2</sup>

ولكن هذا لم يمنع أشكال تعبيرية أخرى أن تصل إلى عمق معاناة الفرد والمجتمع الجزائري بكل صوره الا وهي المسرحية، لقد استطاع المسرح الجزائري ان يستوعب معاناة الواقع الجزائري انه وسيلة هامة لا يصال مبتغى شعب وإرادة أمة، حتى قيل أنّ "المسرح أبو الفنون" .

والمنتبغ لميدان هذا الابداع الأدبي يجده قد حظي بمكانة مهمة وبعناية كبيرة لدي كل الشعوب عكس ما لاقاه في ساحاتنا الأدبية الجزائرية ، على الرغم من أنه أداة فعالة في توجيه الحركة الثقافية والوعي الانساني فهو رسالة موجهة إلى جميع شرائح المجتمع. ولعل هذا ما دفعنا إلى استنطاق المسرح الجزائري لما شهده من تهميش وتحيز، مركزين في ذلك على فعالية تلقي أهم قضية طرحها إلا وهي إشكالية الهوية. كيف ساءل المسرح الجزائري هذه القضية على غرار الرواية؟ وما هي أهم التقنيات الفنية المستخدمة في استنطاق التاريخ والراهن الجزائري؟

## 2- المسرح الجزائري والبحث عن الهوية:

لو جئنا لنساءل مصطلح المسرح مساءلة ايتيمولوجية لوجدنا أنه مشتق من الكلمة اليونانية والتي تعني مكان الرؤية والمشاهدة ومنها جاءت كلمة théâtre<sup>3</sup>

اما اشتقاق هذه اللفظة في المعجم العربي، جا من كلمة "سرح"، وكانت تطلق على مكان رعي الغنم وعلى مكان فناء الدار.<sup>4</sup>

وكما هو ملاحظ أنّ الاشتقاق اللغوي لكلمة مسرح في المعاجم الغربية وكذا العربية يشير إلى المكان، إنه ذلك الفضاء الذي يُجتمع فيه قصد مشاهدة شيء أو التبليغ عن أمر ما، وهذا ما طرحه د/ عبد المالك مرتاض في سياق حديثه عن المسرح قائلًا: « المسرح هو وسيلة من وسائل التبليغ القائم على وسائل جمالية لحمتها الخيال والإبداع، والتبليغ المسرحي يتخذ لنفسه عدة لغات فنية من إيقاع وحركة وأضواء وماكياج،... الخ للفن مادة هي الواقع المسلط على الفنان الناشئ النفس الباطنية متسرب إليها عن طريق العالم الخارجي المولج في النفس الإبداعية.»<sup>5</sup>

وبالتالي، ففن المسرح ليس هو مشاهد أو مناظر فقط، ولا هو رقص، إنه توليفة كل هذه العناصر، إنه ذلك الفعل العاكس لمجموعة من الكلمات والعبارات، الممزوج بالألوان والإيقاع، غايته جذب إنتباه المتلقي وجعله يتفاعل مع القضية المراد طرحها وتبلغها.

أ/- مسار المسرح في الجزائر:

في العهد الروماني:

إنّ روح المسرح قيمة في الجزائر قدم الحضارات المتعاقبة عليها، وما أدل على ذلك ما بقي من آثار مترامية هنا وهناك، فالعديد من المهتمين بتاريخ نشأة المسرح في الجزائر يرجعون ظهوره إلى الفترة الرومانية مستلدين في ذلك على تلك الآثار المؤكدة على وجود مسارح رومانية في بعض مدن الجزائر وهذا ما أكده د/ صالح لمباركة قائلاً: «إنّ البداية الأولى للمسرح في الجزائر كانت في الحقبة الرومانية أي منذ عشرين قرناً كما أنّ الملك البربري "يوبو الثاني" كان له فضل كبير في رعاية الآداب في عهده وكان شديد الاهتمام بالمسرح فأقام مسرحاً في مدينة شرشال وألّف كتاباً حول تاريخ التمثيل»<sup>6</sup>

من الفتح الإسلامي إلى نهاية العهد العثماني:

دخل العرب شمال إفريقيا مع بداية القرن الثامن ميلادي ومعهم كل مقومات حضارتهم المستوحاة من تاريخهم القديم وعهدهم الجديد المتمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وما يحتويه هذا النص من صور تتوافر فيها عناصر البناء المسرحي، ودليلنا في ذلك سورة الكهف خاصة من الآية 60 إلى الآية 82، أضف إلى ذلك أنّ للحياة الاجتماعية الدور البارز في تصور المشاهد وتمثيلها مجسدين طبيعة حياة الباشاوات في القصور والبساتين.

المسرح في الجزائر خلال القرن 19:

أ/- المسرح الاستعماري: ذهب د/ صالح لمباركة إلى الإقرار بأن الجزائر ومعاناة الجزائريين أوحّت للعديد من الكتاب الفرنسيين بما لا يقل عن ثلاثة وأربعين مسرحية بين السنوات (1830-1925) من أشهرها مسرحية موكيرو بعنوان "عبيد الجزائر" التي عرضت سنة 1930 ومسرحية ولينمو روماندي "ريح السيمون" والتي عرضت سنة 1920 وغيرها من الأعمال المسرحية المرتبطة بالزمن الذي مثلت فيه، أحداثها أنية دعائية غرضها الإعلام والتشهير، كما نجد للجزائريين دور كبير في الرّد على استفزاز المستعمرين فغالبا ما كانت عروضهم تنتقد السياسة الفرنسية وهذا ما أدى إلى منع عرضها خوفاً من خطورتها على المستعمر الفرنسي.<sup>7</sup>

بعد الإستقلال استقر النص المسرحي لما تمّ تأميمه بمتضى المرسوم رقم 63/12 في 08 جانفي 1963، حيث شهدت الحركة المسرحية قفزة نوعية لما طرحت قضايا إجتماعية مهمة آنذاك، وقد حظي الأديب أحمد بودشيشة بالنصيب الأول في كتابه "المسرحية الاجتماعية" كما ظهرت في هذه المرحلة المسارح الجهوية في كل من عناية وقسنطينة وسيدي بلعباس والتي أثرت الساحة الفنية بالعديد من الأنشطة التمثيلية منها ما هو مقتبس من أعمال غربية وأخرى عربية بغية مساءلة الواقع وإحياء التورة المجيدة. وهكذا تمّ الاهتمام بالمسرح في الجزائر إهتماما بارزا عن طريق إقامة ندوات متخصصة في دراسة هذا الفن لما يحتويه من مواضيع تستحق الطرح والمناقشة، وبذلك إنتعش المسرح الجزائري وبرزت أقلام إبداعية متميزة أمثال محمد مرتاض في مسرحيته "الانتهازية" سنة 1986، عالج فيها واقع الإدارة الجزائرية كما نشر في نفس الفترة زهير غلاق مجموعة مسرحية سماها "مدرسة العجائب".<sup>8</sup>

## 2/- المضمون الإيديولوجي للمسرح الجزائري:

يبدو أنه من أبرز المضامين الإيديولوجية التي احتواها المسرح الجزائري إشكالية الهوية؛ هوية المبدع وهوية الأدب المبدع وهوية المجتمع وهوية التاريخ، إنها إشكاليات وجد نفسه الفرد الجزائري إزاءها خاصة بعد فترة زمنية إستعمارية طمست كيانه ومحت خصوصيته الانسانية، إنّ الأدب الجزائري بمختلف أشكاله رحلة بحث عن الكيان الجزائري عن أصول وانتماءات الفرد الجزائري.

وردت لفظة "هوية" في قاموس اللغة العربية على أنها « حقيقة الشيء أو الشخص المطلقة المشتملة على صفاته الجوهرية». <sup>9</sup> ، أما في قواميس اللغة الفرنسية فيقال بلفظ الهوية للأشياء والكائنات المتشابهة أو المتماثلة تماثلا تاما مع الاحتفاظ في ذات الوقت تنمايز عن بعضها.

فالهوية هي: « أحد الإشكالات الأساسية التي شغلت المثقف الجزائري ولا تزال، ارتباطا بالبعد التاريخي الذي يعود إلى المرحلة الكولونيالية، وقد تميز خطاب الهوية لدى أغلب المثقفين الجزائريين بإقصاء الآخر». <sup>10</sup>

هذا الآخر والمتمثل في المستعمر الذي كانت غايته الأولى طمس الوجود الجزائري، فبالرغم من خروج الاستعمار من الجزائر إلا أنّ مخلفاته بقيت قابعة في نفسية وأنا الفرد

الجزائري هذا من جهة ومن جهة أخرى تلك العشرية السوداء التي هددت الاستقرار الجزائري، وبالتالي نجد هنالك سياقين تتمحور حولهما إشكالية الهوية:

\*السياق الأول: يتأسس على صراع مع الآخر البعيد الغريب، فهو عدو خارجي له هوية مستقلة، إبان الاستعمار كان الصراع معه قصد التمرد عليه، وبعد الاستعمار استمر الحقد عليه \*أما السياق الثاني، فالصراع فيه داخلي فالقاتل والضحية جزء من الذات، أو الآخر هو عين الذات بلغة بول ريكور.<sup>11</sup>

ولنوضح هذا الطرح اخترنا مسرحية كوميدية طرحت هذه القضية بصورة فكاهية وخير من مثل هذا النمط في التمثيل المسرحي "محمد فلاق" خاصة في مسرحيته (بون كيسستيو) عالج فيها جدلية الأنا والآخر بصورة ملفتة للنظر.

يعدّ محمد فلاق من الممثلين الذين هجروا الجزائر بسبب الظروف الأمنية والاجتماعية المزرية في الجزائر سنوات الإرهاب، وتعرضت عدة أعماله فنية للرقابة بسبب تجاوزها خطوطا حمراء رسمتها وزارة الثقافة آنذاك ، إلا أنّ جل مسرحياته كانت تطرق قضايا اجتماعية بأسلوب هزلي تهكمي، والمسرحية التي اخترناها نموذجا للدراسة تتناول إشكالية الهوية في سياقها المشار إليهما سلفا.

فمحمد فلاق يطرح في بداية مسرحيته أنّ الهوية في وقت الاستعمار كانت مطمسة من نواحي عديدة منها:

1/- جانب اللغة: حاول الاستعمار الفرنسي طمس لغة الجزائريين الأولى (اللغة العربية) واستبدالها باللغة الفرنسية.

2/- النشاط التبشيري: طمس كيان الدين الإسلامي ونشر المبشرين بالمسيحية

3/- تزوير تاريخ الجزائر: فيمحو حضارة الجزائريين يزول كيانهم

فالحرب التي شنها العدو الفرنسي ليست حربا بالسلاح وإنما هي إبادة معنوية اتخذت صور عديدة: فهي إبادة لغوية ، وإبادة دينية، وإبادة ثقافية، وإبادة حضارية. الغرض الوحي منها هو زوال الكيان الجزائري بكل مقوماته الفكرية والحضارية.

ليس هذا فقط بل لم يكن المستعمر فقط هو من هدد الكيان الجزائري بل حتى فئة من الجزائريين خرجو ضد أبناء جلدتهم متحيزين للعدو وصفهم محمد فلاق بالجزائريين الفرنسيين عكس الجزائريين الجزائريين.

وبالتالي نصل إلى أنّ صورة الآخر متعددة في هذا الطرح فليس بالضرورة أن يكون هذا الآخر هو العدو المنافي لك لغويا و دينيا وتاريخيا ؛ وإنما قد يكون هذا الآخر هو من نفس عرقك ومن ذات حضارتك وتاريخك ويتكلم لغتك. وما يثبت هذا الطرح استمرار إشكالية الهوية حتى بعد الاستقلال حتى أصبحت لصيقة بنفسية الشعب الجزائري، فالهوية التي أراد طمسها المستعمر زالت بزواله لأنها صورها خارجية أما أزمة الهوية التي يعيشها الفرد الجزائري إلى حد الآن هي أزمة داخلية لصيقة أشبه بتشوهات فكرية يذهب ألمها ولكن أثارها تبقى ظاهرة وجلية.

الآن وفي الوقت الراهن أصبحت إشكالية الهوية متمحورة حول من يختلف عنك في لغته وعرقه حتى لو كان تابعا لك في دينه وفي تاريخه، فالجزائريون بعد الاستقلال أصبحت معاناتهم متجلية في صورة مختلفة عن ما كنت عليه في فترة الاستعمار، الآن الاختلاف أصبح داخلي؛ من له الأولوية في هذا الوطن التي أصوله بربرية أم التي أصوله عربية، ما هي اللغة الرسمية في البلاد هل هي الأمازيغية أم العربية وانجرف عن هذه الإشكالية حروب أهلية هددت استقرار الجزائري لسنوات عديدة ومازالت مطروحة للنقاش.

في الختام لا يسعنا إلا أن نذكر بإسهام فن المسرح بأنواعه وصوره المختلفة التي طرحت قضايا اجتماعية لصيقة بمعاناة الفرد الجزائري، فالمسرح وإن تعددت صورته كان أقرب إلى ذهنية وذائقة المتلقي الجزائري مهما كانت الطبقة الفكرية التي ينتمي إليها، فالمسرح خطاب موجه إلى كل شرائح المجتمع، وإشكالية الهوية إشكالية كادت أن تصبح جزء لا يتجزأ من الفكر الجزائري فلم تتوقف عند حدود الهوية الوطنية بل تجاوزت ذلك إلى قضية أدبية وفكرية وإلى أزمة سياسية وثقافية.

#### الهوامش:

- 1نصر حامد أبو زيد: النص والسلطة والحقيقة "إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب ، ط5، 2006، ص 9
- 2فتحي بوخالفة: التجربة الروائية المغاربية "دراسة في الفعاليات النصية وآليات القراءة"، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2010، ص 2/1
- 3ينظر شكري عبد الوهاب : النص المسرحي، دار فلور للنشر، ط2، 2001، ص 09
- 4ينظر، حنان قصاب و ماري إلياس: المعجم المسرحي "مفاهيم ومصطلحات"، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط2، 1997، ص 423

- 5 عبد المالك مرتاض: النص الأدبي من أين وإلى أين، ديوان المطبوعات الجامعية، (د.ط)، (د.ت)، ص 15
- 6/د صالح لمباركة: المسرح في الجزائر النشأة والرواد والنصوص حتى سنة 1972، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ج1، 2005، ص10
- 7 ينظر المرجع نفسه، ص 24
- 8 ينظر، عز الدين جلاوي: النص المسرحي في الأدب الجزائري، دار هومة، ط1، 2001، ص 52
- 9 لويس معلوف: المنجد في اللغة والأدب والعلوم، بيروت، ط8، ، (د.ت)، مادة هوية
- 10 رابطة أهل القلم، ط1، 2008، ص 48 بوشعيب الساوري: تمثلات الهوية والآخر قراءة في ثلاثة نصوص روائية،
- 11 ينظر المرجع نفسه، ص 49